مفهوم الإنسانية في شعر معروف الرصافي

الدكتور بلال أحمد زرغر *

ولد معروف الرصافي الملقب بشاعر الحرية في بغداد سنة ١٨٣٧م لأب كردي وأم تركمانية وكانت ولادته في بيت أمه المتواضع لأن والده كان يعمل عريفا في مكان بعيد من العاصمة بغداد وقد ترعرع في رعاية أمه التي كانت تحرص كل الحرص على تربية صالحة خلافا لأترابه من أطفال الظروف الفقيرة ولما بلغ الثالثة من العمر أرسلته أمه إلى مدرسة محلية قضى فيها بضعة أشهر ومن هنا انتقل إلى مدرسة أخرى يديرها عالم كبير يدعى الملا بايز وبعد ما تعلم الحروف الهجائية من المدرسة انتقل إلى مدرسة أخرى وتعلم هناك بضعة أشهر وبعدما ختم القرآن الكريم من هذه المدرسة مع عشرين آخرين، أدخل معهم بالمدرسة الراشدية العسكرية وبعد ذلك انتقل إلى مدرسة خاصة يديرها أحد شيوخ العلم والدين يدعى الشيخ محمد شكري الآلوسى وهناك لقى الرصافي عناية أستاذه الكبرى ودرس عليه الآجرومية، وقطر الندى وألفية ابن مالك ومغني اللبيب بالإضافة إلى ديوان المتنبي، ولزميات المعري وغيرهما ومن أمهات اللغة العربية أمثال خزانة

* الزميل ما بعد الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة كشمير

الأدب والعقد الفريد.

وتخرج في هذه المدرسة في أوائل سنة ١٨٩٨م في السنة الخامسة والعشرين وبعد ذلك عين معلما في مدرسة إبتدائية بالراشيدية ودعى سنة ١٩٠٨م إلى الأستانة لتحرير القسم العربي في جريدة "الإقدام" وعمل هناك فترة، ثم عاد لمتابعة التدريس في بغداد، ولكن مرة أخرى وجهت إليه الدعوة إلى الأستانة للعمل في مجالات الصحافة والتدريس في المدرسة الملكية وفي إثناء عمله هناك انتخب نائبا عن لواء المنتفق في مجلس الأمة العثماني وعمل في هذا المنصب إلى انتهاء الحرب العالمية الأولى ولما قامت ثورة بقيادة رشيد على الكيلاني ببغداد في أوائل الحرب العالمية الثانية أنضم إليها وصار من خطباءها ولكن لما فشلت تلك الثورة كان الرصافي يعيش في شبه عزلة حتى لقي ربّه وهو وحيد في منزله عام ١٩٤٥م.

وكان الرصافي من أشهر شعراء المعاصرين في معالجة القضايا الإنسانية ولا سيما قضايا المنكوبين والمضطهدين والمستضعفين من الناس، حينما ننظر نظرة غائرة على آثاره الأدبية شعرا ونثرا نجده معالجا للقضايا الإنسانية الحارة بكل جدة وعندما نتصفح ديوانه الكبير لا نجد أيّ قصيدة واحدة تخلو خلوا كاملا عن تعبير المشاكل الإنسانية وعلى سبيل المثال يصف في

قصيدة له باسم "المطلقة: حالة فتاة التي طلقت من قبل زوجها وأخرجها من البيت وتعد هذه القصيدة من أجود القصائد في تصوير خبايا المشاكل الإنسانية ويصف الرصافي حالة تلك الفتاة قبل الطلاق قائلا:

بدت كالشمس يحضنها الغروب فتاة راع نضرتها الشحوب
منزهة عن الفحشاء خود من الخفرات آنسة عروب

ثم يتحدث عن حالتها بعد الطلاق وهو يقول:

أصابت من شبيبتها الليالي ولم يدرك ذوابتها المشيب
وقد خلب العقول لها جبين تلوح على أسرته النكوب

وبعد هذا يتوجه الشاعر إلى زوجها الذي عذبها عذابا شديدا وطلقها ثلاثا ويخاطب الشاعر قائلا:

فأقسم بالطلاق لهم يمينا وتلك إليه خطأ وحوب
وطلقها على جهل ثلاثا كذلك يجهل الرجل الغضوب

وفي مكان آخر من نفس القصيدة يتحدث على لسان تلك الفتاة التي تشكو زوجها قائلا:

أما عاهدتني بالله أن لا يفرق بيننا إلا شعوب
لئن فارقتني وصددت عني فقلبي لا يفارقه الوجيب

ونرى في هذه الأبيات وأمثالها الشاعر تساقط نفسه حسرات لمثل هذه الفتاة المنكوبة المطلومة ويدعو الشاعر بكل شدة لإيقاف هذه العادة الشنيعة بل أحيانا يصرخ بأعلى صوته أمام

رجال الدين الذين لا يعنون لإبطال تلك التصرفات الشنيعة الرذيلة التي تخالف القيم الإنسانية والتعاليم السماوية. وفي قصيدة أخرى باسم "أم اليتيم" يصور الشاعر حالة أمرأة أرمنية التي قتل الترك زوجها من التعصب الديني نرى الشاعر في هذه القصيدة أيضا يشارك أحزان المنكوبين والمنكوبات قائلا:

رمت مسمعى ليلا بأنه مؤلم فألقت فوادي بين أنياب ضيغم
وباتت توالى في الظلام أنينها وبت لها مرمى بنهشة أرقم

ثمّ يقول الشاعر إنّه دخل بيتها ليعرف الحقيقة فرأى جسما ضعيفا وبجانبه طفل صغير يبكى بكاء من شدة الجوع فلما أحس بالشاعر توجه إلى أمه ليسأل عن أبيه المقتول ويصور الشاعر تلك اللحضة قائلا:

سلى ذا الفتى يا أم أين مضى أبي وهل يأتينا مساء بمطعم
فقالت له والعين تجرى غروبها وأنفاسها يقذفن شعلة مضرم
أبوك ترامت سفرة راحل إلى الموت لا يرجى له يوم مقدم

وعندما نقرأ هذه القصيدة كاملة ندرك مدى انتشار العنصر الإنساني ورسوخه في شعر معروف الرصافي ونراه واقفا بين الأرمن وغيرهم من الأمم الأخرى دون إيمان تفريق ويتمنى الشاعر دائما لتحقق وحدة الجنس الإنساني على أسس من المحبة والأخوة بحيث لا يكون هناك عربي وتركي بل الوئام والتجانس

التام بين الأجناس والشعوب وفي قصيدة أخرى يتحدث الشاعر بأنه رأى صباح يوم العيد جماعة من الصبيان بأزيائهم الجديدة يلعبــون ويمرحون. وفي جوارهم فتى ذو ثياب رثة يرنوا إلــيهم بــالحزن الشديد فيصور الشاعر تلك الحالة قائلا:

وقفت أجيل الطرف فيهم فراعنى هنـــاك صـــبي بيـــنهم مترعـــرع
صبي صبيح الوجه أسمر شاحب نحيـف المبـاني أدعـج العـين أنـزع

واقترب الشاعر من ذلك الصبى وفهم أنه يتيم يســكن فــي بيت حقير مع والدته وأخوته رافقه الشاعر إلى بيته وشاهد بــؤس أهله وشقائهم وصف هذا المنظر في أشعاره الذي نجــد فــي هــذه القصيدة أيضا وله قصيدة أخرى باسم "الفقر والسقام" نجدها مملوئة كمثل هذه الأشعار وهذا ما نعرف أن معروف الرصافي كان مــن أكبر شعراء العرب في معالجة القضايا الإنسانية بكل جد وجهد ولا سيما الحرية التي أشاد بها أكثر من أي شاعر أخر وأن ولعه الشديد بالحرية التي جعلته مشهورا بلقب شاعر الحرية وكــان لا يعــيش لمواطنيه العراقين فحسب بل للناس جمعيا ولكافة أقطار العالم وهو دائما كان يفكر فيمن يعيش معهم وفي آلامهم وأحزانهم وباســتدلال بمثل هذه الأبيات العديدة يمكن لنا أن نقول بكل الجهر أن معــروف الرصافي أكبر شعراء العرب وأكثرهم همة في معالجــة القضــايا الإنسانية المتعددة وكان الرصافي منفرد من المعاصــرين بســمات

مميزة ومن أبرز تلك السمات أشد الإلتفات إلى الطبقات الإنسانية المطروحة وسعى حلولها بصورة الأشعار الجيدة وكان الرصافي ذا معرفة واسعة وبصيرة نافذة على الظروف القاسية فهو يعالج القضايا الإنسانية مستلهما عن هذه الظروف بكل جيدة التي لا مثيل لها من معاصريه.

المراجع:

١. ديوان معروف الرصافي
٢. الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، عبد الحميد جيدة، دار مطبع محمدي، ص:٧٨
٣. اتجاها الشعر العربي المعاصر، الدكتور إحسان عباس، المجلس الوطني، الكويت، ص: ١٠٤
٤. دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، ص:٣٨
٥. يوسف كوكن، أعلام النثر والشعر في الأدب العربي، الجزء الثاني، ص: ٣٠٧
٦. د. نقولا زياده، مجلة المنهل، العدد ٥٤٩، مايو ١٩٩٨م، جدة، المملكة العربية السعودية، ص:٢٥